

نحو إطار منهجى لنقد العمارة المصرية المعاصرة

د/ على عبد الرؤوف على
مدرس العمارة بجامعة القاهرة

إن وجود حركة نقدية نشطة وفعالة فى الواقع المعماري المصرى المعاصر يعد مدخلاً رئيسياً لتصحيح مسار الحركة المعمارية ، وهو الوسيلة الوحيدة لإثراء جوانبها ومقوماتها الإبداعية . فكل نشاط إبداعى يستلزم وجود نشاط نقدي مواز له يكون مسؤولاً عن تفسير وتحليل وتطوير واستكشاف مجالات إبداعية جديدة . والواقع أن ضرورة النقد المعماري لا نحتاج جهداً لبيانها وإنما تتوجه جهودنا فى إطار هذا المقال نحو كيفية ممارسة النقد المعماري بما يحقق أقصى فوائده التقييمية والفكرية والإبداعية والمسقبلية



صياغة الإطار المنهجي لنقد العمارة :

هذا الإطار يحاول تحقيق العديد من وظائف النقد الرئيسية فى العمارة من حيث إيضاح السلبيات التى تظهر فى البيئة المبنية وتشجيع واحتضان الأمثلة الجيدة فى العمارة والعمران ومنح المعماري والعمراني والمخطط ومتخذ القرار قاعدة عريضة من المجتمع لها قدرة التقييم وإصدار أحكام ناضجة . كما يبرر للمجتمع ويفسر له نوقه وميولة المعاصرة وعلاقتها بالاختيارات المستقبلية . والإطار العام المقترح لممارسة النقد فى العمارة المصرية المعاصرة يتكون من ثلاث مكونات رئيسية : الناقد ، المنهج النقدي ، القنوات التى يصب فيها النتائج النقدي . أى أن صياغة الإطار المقترح هى النتيجة المنطقية للإجابة على ثلاث تساؤلات جوهرية: من يصلح لممارسة النقد المعماري ؟ ما هى المنهجية التى يمكن من خلالها نقد النتائج المعماري ؟ أين تتواجد مجالات ممارسة النقد المعماري ؟

أولاً : المعماري ناقدًا للعمارة :

القضية الأولى فى صياغة الإطار المقترح هى الرغبة فى معرفة من الذى يمارس النشاط النقدي المعماري وبخاصة أن أنوات أدب العمارة بصفة عامة والتعامل النقدي مع العمارة بصفة خاصة أصبح فى نطاق عمل مجموعة من التخصصات الغير منتمية للبحال المعماري ، مثل المؤرخين الفنيين والاجتماعيين وعلماء الآثار والنفسيين والصحفيين والواقع أن علاقة المعماري بهذه التخصصات هى علاقة وثيقة ، ومرة ومع ذلك فإن الجهد النقدي المقدم منهم غالباً ما يكون قاصراً نتيجة ضعف القاعدة المعرفية المعمارية والتي تجعل مساهماتهم أقل فعالية فى إحداث التغيير المنشود . فالناقد الفني على سبيل المثال تعود أن يدرك العمل الفني إدراكاً بصرياً يتعامل خلاله مع أسطح ثنائية الأبعاد تشكل بؤرة اهتمامه وتركيزه . لذلك فهو متمرّن وخبير فى تحليل الخواص التشكيلية ومدى استجابتها للتغيرات الحادثة فى الحقب الثقافية والتاريخية المختلفة . وحتى فى النحت ، وهو الفن التشكيلي الأقرب للعمارة ، فإن الناقد لا يهتم بشئ داخل العمل ولا حتى القوى العاملة على التماسك الإنشائي له ، كما انه غير مطالب بمتابعة العمليات المصاحبة لإنتاج تمثال

برونزي أو أثناء خزفي . بالتالى فإن الناقد الفني يتعامل مع العمارة بنفس المنهجية التى تعود عليها فى متابعتها للأعمال الفنية أى أنه يقيم تجربة معمارية رباعية الأبعاد بنفس المنهج والوسائل التى يقيم بها تجربة فنية ثنائية الأبعاد ، مما يجعل نتائج نقده وتقييمه فى المجال المعماري محدودة التأثير . على الجانب الآخر فإنا نجد علماء النفس والاجتماع على الرغم من مساهماتهم المتميزة فى إثراء نظريات العمارة إلا أن جهودهم النقدي يركز على تقديم تفسيرات لدور الحواس فى إدراكنا للفراغات المعمارية وكذلك فهم النتائج السلوكية والاجتماعية للمعالجات المعمارية والعمرانية المختلفة بدون التعرض لعملية الإنتاج المعماري بشقيها التصميمي أو التنفيذي . والحقيقة أن الناقد المعماري يجب أن يفهم كيف تتم العمليات التصميمية التى من شأنها إخراج العمل المعماري وتحويلة من فكرة فى ذهن المعماري والعمل إلى عمل مبنى مجسد فى الفراغ ، وأن يركز على القاعدة المعرفية التى تجعله قادراً على تفسير طبيعة مشاكل ونتائج العمل التصميمي فى مجال العمارة .

من التحليل السابق يمكننا أن نستنتج أن المعماري هو أكثر التخصصات قدرة وملاءمة لنقد العمارة والتاريخ والتنظير لها لأنه يدرك المنظومة المعمارية بكل أبعادها ويتقن العمليات التى من خلالها يخرج العمل إلى أرض الواقع ويعى أهمية دورها فى تغير البيئة من حولنا كما أنه يعتمد على تحليل معرفي ومنهجي يهتم فيه بأداء المبنى بنفس القدر الذى يهتم فيه بتشكيله .

ثانياً : مقومات الإطار المنهجي المقترح : البعد والعمق التاريخي :

على الناقد أن يوجد القضية التى يواجهها عمقاً تاريخياً يسمح له بالتعرف على جنور المشكلة وأسباب تولدها والسياق التاريخي الذى أنتجها ويتم هذا بتحديد إطاراً تاريخياً للدراسة النقدية تبعاً للتحويلات التى حدثت فى مسار العمارة نتيجة أحداث هامة كالثورات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو التغير فى المفاهيم الحاكمة فكرياً أو ثقافياً . وعلى المعماري أن يستعين بمختلف أدوات التوثيق والتسجيل بالمواد اللازمة من خرائط ووثائق وكتب مرجعية وصور فوتوغرافية موثقة وغيرها لتدعيم هذا التأصيل التاريخي .

الدراسة التقييمية :

إن عملية تصنيف المباني والأعمال التي سيتم نقدها وتقييمها يكون إما تبعا لوظيفتها أو لنوعها أو لطرازها أو لبرنامجها المعماري وهي عملية ذات أهمية كبرى في الإطار المقترح لأن الكثير من معايير التقييم التي يتم على أساسها نقد العمل تتأثر بتصنيف المبنى ونوعه وهدفه .

شمولية الرؤية النقدية :

الإطار المقترح يعنى بشمولية النشاط النقدي فلا يتعامل مع المباني كأهداف معزولة للنقد ولكنه يتضمن النقد المعماري والعمراني والبيئي وبالتالي تحول ناقد العمارة إلى ناقد شمولي ينظر إلى العمل من عدة مستويات .

أ - مستوي المبنى :

أول المستويات وأكثرها مباشرة حيث يعتمد على النظر إلى مدى استجابة المبنى للاحتياجات الوظيفية وصفاته الجمالية من معالجات كتلية وفراغية وبالتالي فإن جميع الجوانب الاستاتيكية من شكل ومواد وألوان والجوانب الديناميكية كاتنماط الحركة إلى وحول وداخل المبنى وما تشمله من تجارب أدراكية وبصرية يتم تحليلها وتوثيقها بالصور الفوتوغرافية والاسكتشات والدياجرامات التي تعطى وصفاً كاملاً يمكن القارئ أو المستمع من استيعاب المبنى ككل .

ب - العمل المعماري في إطاره الحضاري :

ويشمل دراسة مدى توافق العمل مع القيم الحضارية والثقافية للمجتمع الذي يبنى له ونمط الحياة به وكذلك مع التراث الحضاري الذي تعبر عنه حصيلة المبادئ التشكيلية والبنائية التي أنتجتها مهارات وخبرات وإبداعات أفرزها المجتمع عبر تاريخه ونتائج هذا التوافق نقلاً أم تجويداً أم تجديدياً .

ج - العمل في إطاره البيئي :

تدرس طبيعة العلاقة بين المبنى والبيئة المحيطة وتأثير كل منهما على الآخر إيجابياً وسلبياً . كما يدرس مدى التوافق أو التناظر والاتجانس بينهما .

د - العمل المعماري في إطاره الفكري محلياً وعالمياً :

وينقد بالإطار الفكري أن نقيم أولاً مدى تأثير العمل بالتيارات والمدارس المحلية ثم العالمية ثم ننتهي إلى استنباط مدى مساهمته في الوسط الفكري وقدرته على مواجهة القضايا المطروحة والملحة سواء في المجال المعماري أو في المجال الحضاري الإنساني ككل .

هـ - العمل المعماري والبناء الخائس للمعماري :

وهنا نقيم العمل باعتباره حلقة من حلقات سلسلة إبداعية تخص معماري معين . وبالتالي توضح علاقة المشروع بالمشوار الفكري الإبداعي للمعماري وماذا يمثل له إيجابياً أو سلبياً .

إدارة الجوانب المرئية واللامرئية في العمل :

الإدراك الناجح للمبنى يضمن مصداقية وموضوعية في الانطباعات التي يكونها الناقد خلال سلسلة العمليات الإدراكية التي تحدث أثناء فحصه واستيعابه له . وشروط هذا الإدراك الناجح ألا يكتفى الناقد بتكوين آراء وانطباعات من فحص الرسومات المعمارية والصور الفوتوغرافية حيث أنها تمثل البديل الأضعف للمبنى نفسه بسبب عجزها عن بيان القيم والصفات التي توضع الجو العام للبيئة البنائية . وبالتالي يصبح لزاماً على الناقد أن يحقق أقصى درجات المعيشة والتفاعل مع المبنى موضوع النقد . ويمكنه تحقيق ذلك باتباع الخطوات التالية :

أ - زيارة العمل في الطبيعة :

على الناقد أن يتعامل مع المباني التي زارها فقط وانفعل بها وتجول خلالها وأدرك مختلف جوانبها . وزيارة الناقد للموقع تماثل منهجية الناقد العلمي التي يواجه بها تجربة جديدة بأن يعيدها في معمله لتأخذ مشروعيتها ومصداقيتها ، أي أن الناقد المعماري لا يجب أن يكتفى بالرسومات والصور ثنائية الأبعاد في وصف تجربة معمارية حقيقية . ومن المهم أن تتعدد هذه الزيارات وأن تتم في أوقات مختلفة وفي أثناء تأدية المبنى لوظيفته ، وخاصة في حالة المباني العامة المرتبطة بالعروض والاحتفالات وممارسة الحياة العامة كالساح والمناح وديور الاويرا والمساجد وغيرها .

ب - مقابلة مستعمل المبنى :

على الناقد ألا يكتفى بمقابلة صاحب المبنى أو الإداري المسئول بل يحرص على مقابلة المستعملين الحقيقيين لمعرفة آرائهم . ففي مستشفى على سبيل المثال يصبح من الهام مقابلة فريق العمل الفني من أطباء وممرضين والإداري من مشرفين ومحاسبين وكذلك مراقبة سلوك المرضى وكيفية تعاملهم مع المبنى . كما أن مقابلة العاملين بالصيانة غاية في الأهمية لأنهم أكثر الأطراف علماً بمقدرة المبنى على العمل وتحقيق وظائفه .

ج - مرحلة النقد والتقييم :

من الهام تقسيم العمل النقدي المعماري إلى مرحلتين الأولى نقد تمهيدى ثم يتم متابعة العمل لفترة زمنية تسمح بتقييم تأثير التقدم وتغيرات الجو وطريقة الاستعمال وغيرها من العوامل المؤثرة على حالة المبنى . ثم تبدأ المرحلة الثانية والنهائية التي تقدم تقييماً شمولياً للعمل .

د - التوثيق الفوتوغرافي :

التصوير الفوتوغرافي هو أحد الدعائم الرئيسية لأدب العمارة فهو يقدم الصور البصرية للجميع ويصرف النظر عن اختلاف الثقافة واللغة مما يعمل على نشر الأفكار والاتجاهات في أنحاء العالم كله . وعلى الناقد أثناء توثيقه الفوتوغرافي للعمل أن يتأكد من تغطية جميع جوانب التجربة التي مر بها يعمل مجموعات من الصور التي تغطي داخل وخارج المبنى أثناء الليل والنهار ... وفي حالة الجو الجيدة والسيئة ... وفي حالة ازدحام المبنى أو خلوه من مستعمليه .

الارتباط مع العملية التصميمية :

في المنهج المقترح يقترب الناقد من المصمم ليحاول كسر العزلة ويظهر أن عملية التصميم المعماري ليست مجموعة من المعجزات أو العمليات السرية ، كما يجب عليه أن يتعامل مع غرض المبنى وبرنامجها ليعيد دراسته وتحليل عناصره المختلفة . انن من الجوهرى للناقد أن يحرص على خلق علاقة تبادلية بينه وبين مصمم العمل قبل وأثناء وبعد ممارسة العمل التصميمي . ويعنى هذا أن تأثير النقد يجب أن يصب في قناتين ، الأولى هي تعامل الناقد مع أهداف المصمم ومنهجه التصميمي أثناء مرحليات العملية الإبداعية ، والثانية هي تعامله مع المنتج النهائي وتأثير نقده على المحيط الإبداعي المعماري بصفة عامة . وهنا تتبلور لنا أحد أهم وظائف النقد المعماري وهي أنه غير مؤثر فقط على التطور الفردي للمعماري المصمم بتشجيع واحتضان وإبراز الأمثلة المتميزة وتسجيلها وتوثيقها ولكنه يساهم أيضاً في التأثير على المستقبل الجماعي للمجتمع حيث أن معظم القرارات حول البيئة وتصميمها تخص عامة المجتمع أكثر مما يظهر في أي مجال فني آخر .

على الناقد أن يوجد القضية التي يواجهها عمقاً تاريخياً يسوع له بالتعرف على جذور المشكلة وأسباب تولدها والسياق التاريخي الذي أنتجها

المعايير النقدية :

إن عملية النقد في أبسط تعريفاتها هي محاولة للتقييم تتطلب صياغة مجموعة من المعايير التي يجتهد الناقد في حصرها لتمكنه من ممارسة عمله . وهذه المعايير يجب أن تتعدد وتتعدد لضمان التغطية الأكثر شمولية للعمل موضوع النقد ومن تحليل طبيعة النشاط الإبداعي في العمارة يمكن أن نستخلص أهم تلك المعايير :

- المعايير الانتقافية
- المعايير الإنشائية
- المعايير الجمالية
- المعايير البيئية
- المعايير الاقتصادية
- المعايير الثقافية
- المعايير الاجتماعية
- المعايير السياسية

وهذه المعايير يجب التعامل معها في إطار أنها ذات طبيعة عضوية تتسم بالتداخل والتشابك والارتباط .

البعد المستقبلي في الحركة النقدية :

إن الإطار المقترح يعطى النقد الإمكانية الثورية التقدمية ، وبحيث لا يقتصر دور النقد على تقديم تفسيرات لأحداث ماضية أو حاضرة ولكنه يعلم المبدع كيف يتعامل مع المستقبل ويستشرفه . وهذا التوجه المستقبلي للنقد يعطيه الإمكانية الحقيقية للتواجد لأن الناقد الذي يدرك البعد المستقبلي لدوره يصبح أكثر قيمة وتأثيراً من زميله الذي حصر دوره في نقد مبان قائمة فقط . وعندما يكون المستقبل هو بؤرة اهتمام الناقد فإن أولوياته تصبح كالآتي :

أ - تجهيز وإعداد متلقى ومستعملي الأعمال المعمارية ليكون عندهم القدرة على

تقييم ما يطرح عليهم وإصدار أحكام ناضجة .. هؤلاء الملايين الذين ينظرون إلى ويعيشون في ويستعملون ما ينتجه المعماري وبحيث يكونون معا جبهة نقدية فعالة تتبنى الجيد وترفض غيره .

ب - أن يمكن كل من المبدع والمتلقى من رؤية الكيفية التي خرج بها العمل المعماري إلى أرض الواقع وما هي التداعيات المستقبلية لهذا الحدث بأن يجيب على اسئلة مثل :

- ما هو تسلسل العمليات التصميمية والبنائية التي أنتجت العمل ؟

- ما الذي يجعل مشروعاً ما قابلاً للنمو والامتداد ؟

- ما الذي أدى بمنطقة ما إلى حالة من التدهور والتداعي ؟

ج - ان يستكشف ويحاول التنبؤ بالتوجهات المستقبلية للحركة المعمارية والمحلية والعالمية . وأن ينتبه المبدع إلى ما حوله من تغيرات وقوى تفرض نفسها على المناخ الإبداعي بصفة عامة وعلى الإبداع المعماري بصفة خاصة وتغير أهدافه ووسائله وصياغاته .

نائباً : مجالات الممارسة النقدية المعمارية في مصر :

المقصود بالمجالات التي يمارس بها النقد هي القنوات التي يصب فيها الجهد النقدي وتستوعب نشاط النقاد بمختلف آرائهم وتوجهاتهم ومساهماتهم وتلك المجالات يمكن حصرها في الآتي :

١- الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية :

حيث يحتل الناقد مساحة معينة تظهر اسبوعياً او شهرياً وغالباً ما تكون كتاباته موجهة للقاعدة العريضة من المجتمع بقصد زيادة الوعي وتنمية القدرة على التقييم ومن أشهر الجرائد والمجلات التي تلتزم بهذا " الواشنطن بوست " و "نيويورك تايمز" الامريكيتان و "لوموند الفرنسية" و "دير شبيجل" الالمانية ومؤخراً الأهرام المصرية في صفحة العمران .

ب- المجالات المتخصصة :

وهي المجالات التي تعنى بالعمارة بصفة اساسية وتحوى المقالات والتحليلات والدراسات النقدية وهي موجهة للمتخصصين والمحترفين ولعل أهمها عالمياً Architectural Record & Architectural Review وتنفرد "عالم البناء"

بكونها المجلة المعمارية الوحيدة في مصر .

ج- تقييم المسابقات المعمارية :

المسابقات المعمارية هي مباريات إبداعية بين المعماريين وهي أحد القنوات الرئيسية التي يصب فيها الفكر التجديدي ، وترجيح أحد الطول يحتاج إلى منهج نقدي تقيمي كما أن عرض المسابقة ومناقشتها في المحافل المختلفة هو نشاط يتطلب جهد نقدي متميز . ولعل إهمال تقديم دراسات نقدية لمسابقات كبرى وهامة في مصر مثل مكتبة الاسكندرية ودار الكتب وغيرها يوضح القصور النقدي الشديد في هذا المجال .

د- تقييم المشروعات الكبرى :

بعض المشروعات المعمارية والعمرائية قد تمثل علامة بارزة في تاريخ عمارة وعمران مجتمع انساني معين وهنا يبرز دور الناقد في تحليل هذه المشروعات وتقسيمها وإشراك المجتمع في تقييمها ومتابعة ما تثيره من قضايا وأشكاليات. وفي مصر تعدد الامثلة على تلك النوعية من المشروعات ولعل أبرزها مبنى الأوبرا المصرية وقاعة المؤتمرات ومتحف الحضارة وغيرها .

هـ - الأحداث المعمارية (المؤتمرات ، الندوات والمعارض) :

وهي حلقات الصراع الفكري الإبداعي النقدي الراقى التي يلعب النقد والنقاد دوراً

جوهرياً في إثرائها وتوجيه المبدع إلى التغيرات الحادثة في فكر وقيم وتشكيل العمارة . إضافة إلى إثارة القضايا التي يجد فيها ما يمثل تحدى يجب مواجهته من قبل المبدعين المعاصرين

و- حركة التأليف والنشر :

المسئولية الأولى تقع على الناقد في إثراء الحركة الفكرية بما ينتجه من كتب تبلور الاتجاهات الإبداعية وتحدث تحولات بها . وكذلك تفسر الأعمال المتميزة وتدرس

المعماريين المجددين وما يمكن الاستفادة به من مراحل حياتهم وسنوات تكوينهم والكثير من هذه الكتب قد يشكل نقطة تحول في مسار العمارة كما رأينا قديماً في حالة جون راسكن وفيوليه لو دوك وحديثاً في إنتاج روبرت فنتورى وحسن فتحي وشارلز جنيكز وكينيث فرامبتون وبيتر كوليز على المستوى العالمي .

أما على المستوى العربي المصري وعلى الرغم من ضالة الانتاج إلا أن هناك نماذج متميزة مثل "رفعة جادرجي" و "جميل أكبر" و "عرفان سامي" و "علي رأفت" و "عبد الباقي ابراهيم" .

وهذا لا يقلل هذا من شأن ممارسات نقدية عالية المستوى من قبل أحمد بهاء الدين ونعمات أحمد فؤاد وأحمد عبد المعطى حجازي وفاروق جويده والتي كانت بمثابة القليل الذي أشعل قضايا نقدية هامة في عمارة وعمران مصر .

ومن علماء النفس والاجتماعيين المتميزين بمساهماتهم النقدية في العمارة والعمران نجد علياً روبرت جوتمان" و "إيوارد هال" و "جيمس جيبسون" ومحلياً "عاطف غيث" و "سيد عويس" .

كما حرص اسماعيل سراج الدين في كتابه " التجديد والتأصل في عمارة المجتمعات الإسلامية " على تقديم تحليلاً نظرياً أوضح به أن شمولية إدراك العمل المعماري تنتج من فحصه في إطاره المادى والتراثى والدولى والفكرى ومنشورات

الأغاخان ١٩٨٩ .

في المنهج المقترح يقترح الناقد من المصمم ليحاول كسر العزلة ويظهر أن عملية التصميم المعماري ليست مجموعة من الحجزات أو العمليات العزلية كما يجب عليه أن يتعامل مع عرض الجنبى وبرنامجه ليحدد دراسته وتحليل عناصره المختلفة